بقايا الفصاح

إذا كنت أنقّب من حين إلى آخر عن بقايا الفصاح في لغتنا العامّة في دمشق ، فلست أرمي في هذا التنقيب إلى مجرّد الاهتمام باللغة أو بحياة الألفاظ ، وإنما أرى في بقايا الفصاح ما يوحي إلينا نمطاً من الحياة أو طرازاً من البنيان أو نظائر هذه الموضوعات ، فقد تعيننا اللغة على تذكّر ما فاتنا من الأمور في مواضي السنين ، أو على معرفة ما زال مستمراً من هذه الأمور أو ما اضمحلّ منها ، من هذا القبيل فعل : شطف ، فلنرجع إلى دورنا القديمة في دمشق .

كان ربّ البيت يعيش هو وأبناؤه وأحفاده في بيت واحد في أكثر الأحيان ، وقد استعملت في هذا المقام لفظة البيت بدلاً من لفظة الدار ، فإنهم في دمشق يقولون : بيت فلان ولا يقولون : دار فلان ، أمّا في

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

مدن ثانية فإنهم يقولون : دار فلان ، وقد تكون الدار أعمّ لأنها تجمع البناء والعرصة ، وكان البيت في الأغلب من الأوقات ذا طاقين ، الطاق الأول يشتمل على صحن الدار ، وعلى الإيوان ، واسمه في اللغة العامة : الليوان ، وعلى مخادع وقاعات ومربّعات يتقون فيها شدّة الحرّ في الصيف ، والطاق الثاني يحتوي على ما يسمّونه القصر ، والفرنكات ، يتّقون فيها شدّة البرد في الشتاء ، فالبيوت كانت مبنية على شكل يناسب بيئة دمشق من حيث الحرّ والبرد ، ولمّا كان البيت الواحد يضمّ صاحبه وأبناءه وأحفاده كانت النساء يتناوبن على تنظيف الصحن ، واسمه في اللغة العامة : الديار ، فكل امرأة لها نوبة ، واللفظة التي كانوا يستعملونها في هذا التنظيف إنما هي فعل : شطف ، فصحن الدار كانوا يشطفونه كل يوم أو كل يومين ، والماء من البركة في وسط الدار واسمها : البحرة ، فالذي يعنينا من هذا كلّه إنما هو فعل : شطف .

ماذا نجد في اللغة ، يقول الفيروزابادي في قاموسه المحيط : شطف ذهب وتباعد وغسل ، فمادّة شطف لها أصل في اللغة الفصيحة ، ولكنها إذا كان معناها : غسل ، فهي سوادية ، أي من لغة أهل السواد ، أمّا في دمشق فإنها من لغة أهل المدن ، فالطبقات كلها تستعمل هذه المادّة في لغتهم ، فيقولون : شطف البيت .

ماذا بقي من أصل هذه المادّة في لغة دمشق ، ان فعل شطف لم يمت في لغة العامّة ، وإن كان البنيان قد اختلف طرازه عمّا كان عليه في الماضي ، فلا نجد لأغلب دور دمشق صحناً في وسطه بحرة ، وإنما الدور أصبحت طبقاتاً ، كل طاق فوقه طاق ولا صحن له ، فلم تبق حاجة إلى شطف البيت ، وإنما أهله يمسحون غرفه مسحاً ، ففعل مسح قام مقام شطف في هذا المجال ، إلاّ أن فعل شطف لم يمت ، فهو لا يزال مستعملاً في لغتنا العامّة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا نزال نقول : اشطف الملعقة أو الصحن أو الكأس وغير ذلك من ماعون البيت ، ونحن نريد بذلك قولنا : اغسل ، وقد تستعمل هذه المادّة مجازاً فنقول : اشطف يدك منه ، أي انزعه من فكرك ، فلا أمل فيه أو لا فائدة ، وقد يستعمل هذا الفعل مشدّداً فنقول : شطّفت ابنها ، ونحن نعني بذلك وجهاً معروفاً من النظافة .

وكما أوحى إلينا فعل : شطف طرازاً من البنيان ونمطاً من الحياة الاجتماعية فكذلك أوحى إلينا فعل : نقط شكلاً من هذه الحياة ، فلنرجع إلى ماضي دمشق .

كانت بعض الأُسر في دمشق التي رزقها الله تعالى شيئاً من النعيم إذا تزوّج أحد رجالها أو ختن أحد أولادها تفرح بهذا الزواج وبهذا الختان ويسمّونه : الطهور ، ومن مظاهر الفرح إحياء ليلة تغنّي فيها المغنّيات في صحن الدار أو في القاعة ، وتدعى إلى هذا الفرح بعض السّيدات من الأقارب والأصحاب ، وكانت السيّدات يتنافسن في اللباس والحُلي ، فكان لا بدّ لكل سيّدة على ما أذكر من أن تخيط لها ثوباً خاصاً تلبسه في هذه الليلة ولا تلبسه في ليلة فرح ثانية ، كما كان لا بدّ لها من التزين بالحُلي ، فبعض السيّدات كان لهنّ حُلي ، وبعضهن كنّ يستعرن الحُلي في ليالي الفرح ، ثم يعدنها الى أصحابها بعد الفرح ، وأكثر المغنّيات كنّ يهوديات مشهورات من حارة اليهود في دمشق ، فكنّ يغنّين الليلة كلّها وتمتدّ السفرة في الليل فتأكل منها المدعوات من النساء . كانوا ينقّطون المغنيات بالمال ، وينقطون العروس أو الأولاد المختونين بالحُلي أو بالمال ، معنى هذا أنهم كانوا يدفعون إليهم ما يتيسّر لهم من المال أو يهدون إليهم ما يتيسّر لهم من الحُلي ، من قرط ويسمونه : الحلق ، أو خاتم أو سوار أو عقد وما شاكل ذلك ، وفي الصباح تنصرف المغنّيات والمدعوات ، أمّا في عصرنا فقد بطل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما يسمّونه الليليات أو قلّ جداً ، وإنما مظاهر الفرح تقام اليوم في فندق كبير أو في نادٍ مشهور ، يقدّم فيه المأكول والمشروب ، أمّا المغنّيات اليهوديات فلم يبق لهنّ أثر ، وقد يجوز أن يغنّي في ليالي الفرح بعض من اشتهر بالغناء .

فالذي ينصرف إليه ذهننا إنما هو فعل : نقط ، فهذا الفعل أوحى إلينا غطاً من الحياة الاجتماعية قد انتقل في عصرنا من طورٍ إلى طور ، فهل كان لفعل نقط ذكر في الماضي ، نجد في الأغاني استعمال هذا الفعل بمعناه الحديث في مواطن مختلفة ، فقد ورد في أخبار محمد بن الحرث بن بشخير (١) ما يلي : ونقطها بدنانير مسنتة كانت معه في خريطته ... ثم جاءت في أخبار أشعب هذه العبارة : وفرض لي ، أي نقطني ، يعني ما يهديه الناس للمغنّين ، ويسمونه : النقط ... هذه هي عبارة الأغاني ، إلاّ أن النقط تسمّيه العامّة في لغتها اليوم : النقوط ، وتستعمل الفعل مشدّداً ، ولم أجد لهذه المادّة في القاموس المحيط المعنى الذي أشار إليه صاحب الأغاني ، وإنما جاء في معناها : نقط الحرف ونقّطه بالتشديد ، أعجمه ، والاسم : النقطة .

وفي القرية التي أعيش فيها من أربعين سنةً يستعملون : حمل له ويستعملون نقّطـــه ، فإذا مرض أحد من أهل القرية أو نقه من مرضه أو تزوّج أو عاد من الحج أو من سفر أو إذا ختن أحد الأولاد فإنّ بعض الأهل والأصحاب يحملون له ما يتيسّر لهم من لبن أو حليب أو فاكهة أو برغل أو سكّر أو حلواء ، وقد يدفعون في بعض الأحوال شيئاً من المال ،

---

(١) في الأغاني جزء (١) ص (٥) ط دار الكتب ضبط الاسم : الحارث بن بُسْخُنَّر نقلاً عن الأستاذ الشنقيطي بخطه وضبطه : بضم الباء وإسكان السين وضم الخاء وإسكان النون ، وقد ورد الاسم في نسخة أخرى بشخير ، وفي سائر النسخ « شخير » كما جاء في الأغاني . (المجلة)

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالفعل الذي يستعملونه في مثل هذا المقام إنما هو : حمل له ، وقد تقرأ قصة المولد إظهاراً للفرح . على أنهم قد يستعملون أيضاً فعل : نقَّطه في عرس أو ختان .

ومن الألفاظ التي تذكرنا موسماً من مواسم الحج في دمشق من ستّين سنة لفظة : العكّام . وقبل الشروع في شرح هذه اللفظة لا بأس بأن نشير إلى زمن استعمالها ، كان يوم الحج في دمشق يوماً مشهوداً وكانوا يقولون : فرجة المحمل ، فيزدحم الناس على جانبي الطريق الممتد من الدرويشية إلى آخر حيّ الميدان حتى القدم ، وكانوا يزوّقون الجمل الذي عليه المحمل ، حتى إذا وصل إلى آخر الميدان ، إلى « مصطبة زاوية السعدي » جمعوا اللوز والسكّر ودحرجوه في فمه إكراماً له ، وكان يخرج في موكب الحج من كانوا يسمونهم : باشا الحج ، ونقيب الأشراف ، وغيرهما من كبار رجال الحكومة على خيول مطهّمة ، فإذا وصل الموكب إلى « العسالي » انفضّت جماهير الناس وعادوا إلى بيوتهم أو دكاكينهم أو مخازنهم . كان الحجّاج يذهبون إلى الحج على ظهور الإبل ، فيقضون شهراً أو أكثر في هذه الصحراء الممتدة من دمشق إلى المدينة ، ويعانون في الطريق ما يعانون من المتاعب ، وكان لكل جمل رجل يقال له العكّام ، وهو صاحب الجمل يتولّى خدمته وسوقه على الطريق ، وكان العكّامون أكثرهم من حارة الشاغور في دمشق .

لقد بطلت هذه الأمور كلّها في يومنا ، فلم يبق للحج موسم ولا فرجة ولا موكب ، وإنما الناس يحجّون في عصرنا إمّا على الطّائرات وإمّا على السيّارات وإمّا على السفن ، وإذا بطلت فرجة الحج فقد بطلت معها لفظة : العكّام .

ما هو أصل هذه اللفظة ، فهل لها صلة بما كانت تدلّ عليه .

نجد في الأغاني في ذكر متمم (١) وأخباره وخبر مالك ومقتله ما يلي : فلما

---

(١) هو متمم بن نويرة وأخوه مالك الذي قتله خالد بن الوليد في حروب الردّة .
(المجلة)

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

دخل آخر الجمال نخس البوّاب عكماً من الأعكام بنخسة معـــه ...
في القاموس المحيط : عكم المتاع يعكمه بالكسر شدّه بثوب ، والعكم بالكسر
العدل ، والجمع : أعكام .

من هذا يتبيّن لنا أن لفظة العكّام ليست غريبة عن المعنى الذي كانوا يطلقونه بدمشق عليها ، فالعكّام في اللغة من يشدّ المتاع بثوب ، والعكّام في موسم الحج كان يقود الجمل ويشدّ متاع الحجّاج ، ويتولّى في الوقت نفسه خدمة الجمل وخدمة الحجّاج .

لقد ذهب الجَمَل وذهب العكّام وذهبت فرجة الحج ، ولم يبق لنا من هذا كلّه إلاّ الذكرى التي أحيتها لنا لفظة : العكّام . على أن مادّة عكم لا تزال شائعة في لغة العامّة ، إلاّ أنّ شيوعها على سبيل المجاز ، فإذا قالوا : عكمه أو عكمها وذهبا معاً فهم يريدون بقولهم أنّه أخذه أو أخذها معه ، وقد يتضمن هذا الأخذ شيئاً من الإيثار ، فكما أنّ معنى عكم المتاع الفصيحة شدّه بثوب ، فكذلك معنى عكم فلان فلاناً العاميـــة شدّه إليه وراح إيثاراً له ، وهذا من باب المجاز .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net